تاريخ الأدب

بقلم الأستاذ محمود محمد

سلكت دراسة التاريخ فى العصر الحديث مسالك شتى ، وتشعبت فى فروع كثيرة ؛ فأصبحنا نرى الى جانب تاريخ السياسة تاريخاً للفلسفة ، وتاريخاً للعلوم ، وتاريخاً للاقتصاد ، وتاريخاً للأدب . وسنحاول فى هذه الكلمة أن نبين مدى ما يمسه تاريخ الأدب من مباحث .

١ — شخصية الكاتب

يعنى تاريخ الآداب بدراسة الآثار الأدبية من نثر ونظم . ولما كنا لا نستطيع أن نفهم الكتاب فهماً صادقاً دون أن نعرف مؤلفه ، أو نحلل القصيدة تحليلاً دقيقاً من غير أن نعرف ناظمها ، فقد أصبح لزاماً علينا أن نجعل الكتّاب والشعراء أنفسهم موضوعاً للدرس عند دراسة تاريخ الأدب ، ذلك لأنه يستحيل علينا أن نفصل الأثر عن المؤثر أو نفهم النتيجة دون السبب . وإننا حين نقرأ كتاباً من الكتب تبرز لنا شخصية المؤلف الذى صب أفكاره ومشاعره فى هذا الكتاب قوية واضحة ، بحيث لا نستطيع إنكارها .

وتشمل دراسة الأشخاص نشأتهم وتجاربهم وأخلاقهم الموروثة والمكتسبة ، ونزعاتهم وتاريخ حياتهم ، وغيرذلك من مكونات الشخصية . ولكن هناك ناحية أخرى يجب أن تنال من عنايتنا أكبر نصيب عند دراسة الأديب ، تلك هى السمة الظاهرة ، والطابع الخاص الذى يميز البعض عن البعض، ويرفع كاتباً فوق الآخر . ذلك لأن العبقرية معنى واسع تشمل أطرافاً متباعدة ، ولكنها فى صميمها عبارة عن قوة الشخصية ، أو قوة الابتكار والابتداع . ويقول أحد الكتاب الانجليز : « إن كل كاتب كبير يأتى الى هذا العالم بشىء جديد كل الجدة : ذلك هو نفسه » . والكاتب المخلص لفنه يسكب نفسه ويبث روحه فى كل ما يكتب ، ومن ثم اختلفت آثار الكتاب وانطبعت بصور شتى من شخصياتهم . وواجبنا عند دراسة الأديب أن نبرز طابعه الشخصى للعيان ، ونفصله كل التفصيل ؛ فهو أهم ما يجب أن نعرف عنه ، وللأديب من الأهمية والعظمة بقدر ما لهذا الطابع من قيمة وجاذبية .

٢ — المذاهب والمدارس فى الأدب

ليست شخصية الكاتب إلا ناحية واحدة من نواح كثيرة ، يختص بدراستها تاريخ الأدب . فلو أنا دونا مصنفاً يجمع بين دفتيه تاريخ حياة الأدباء وذكر آثارهم ومخلفاتهم متنافرة لا تؤلف بين ابعاضها فكرة ، ولا تربط أجزاءها صلة ، كان تأريخنا لأدب اللغة ناقصاً قليل الفائدة ، لأن الأدب برمته يرتقى وينحط من عصر الى عصر . وعلى مؤرخ الآداب أن يدرس أسباب الرقى والانحطاط ، وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلاتهم بأسلافهم وأخلاقهم ، فان من الكتاب من يرتفع الى درجة السمو والكمال ، فيطبع عصره بطابع خاص ، ويظهر من بعده أتباع له يتأثرون آراءه وأساليبه ، معترفين بفضله حيناً ومنكرين أحيانا . والكتاب الذى يلقى رواجاً عند جمهور الناس لا يلبث أن يظهر له أشباه ، وأن يتكرر مافيه مرات ومرات : وهكذا تنشأ المدارس فى الأدب ، وتظهر الحركات التجديدية التى تحيا حيناً من الدهر ،

---

٨ — إن اختراع الطباعة — ذلك الاختراع الخطير — استلهمه جون جينسفليش فى ساعة نشوة وطرب حيث نقش الحروف الأولى من اسمه على شجرة ، ثم ساقه الخيال الحالم الى أن يضع عليها ورقة فانطبعت عليها هذه الحروف

٩ — إن جاك لافايت أحد رجالات المال والسياسة الفرنسيين ، والذى لعب دوراً خطيراً فى ثورة عام ١٨٣٠ كان فى الأصل بائساً معدماً . وقد نسب العمل الذى فتح أمامه طريق اليسار والفخار الى التقاطه دبوساً ضائعاً فى شوارع باريس .

١٠ — خطرت نظرية الجاذبية لسير اسحق نيوتن عند ما رأى تفاحة تسقط مصادفة من شجرة كان يرقد تحتها فى لحظة تفكير وتأمل .

١١ — قال قيصر « المصادفة أثر كبير فى الحرب » ولكن أثرها أكبر فى الاكتشافات العلمية والاحداث السياسية (جريدة التيمس)

١٢ — قد تؤدى حادثة صغيرة جداً الى نتائج عظيمة الشأن . وأحياناً تسبب أروع النكبات (تشيمبرز)

ثم تموت لتخلي السبيل الى ظهور مدرسة أخرى أو حركة جديدة حينما تتغير الأذواق وتتبدل المذاهب . فاذا قلنا — مثلا — مدرسة « پوپ » فى الأدب الانجليزى ، انصب قولنا على جميع الشعراء الذين تبعوه فى الأسلوب الذى أذاعه بين الناس ورفعه الى مرتبة الكمال . واذا ذكرت « الحركة الكلاسيكية » فى الشعر ، حملت الى أذهاننا عصر پوپ الذى تميز بالرجوع الى تراث الأقدمين وورود مناهجهم الأدبية . واذا قلنا الحركة الرومانتيكية فى النثر الخيالى ، قصدنا ذلك المنوال الذى أنشأه « سكُتْ » فى كتابة القصص التاريخية ، ونسج عليه أتباعه ومقلدوه . وقد ظهرت المدارس والمذاهب كذلك فى الأدب العربى ، فكان فى العصر العباسى مدرسة وعلى رأسها الأصمعى ، لاتحب إلا الشعر الجاهلى ، ولا تحب من المحدثين إلا من قلد القدماء . وقد أدخل المتنبى والمعرى الفلسفة فى الشعر ، فأصبحت مذهباً من المذاهب له أشياعه وأنصاره .

هذه المدارس والحركات تلعب دوراً هاما فى تطور الأدب ، ولها من الأهمية فى دراسة تاريخ الآداب ما لا يقل شأناً عن دراسة شخصيات الكتاب أنفسهم . فان الأديب مهما كان مجدداً مبتكراً فهو مازال الى حد كبير وليداً لبعض الكتاب السابقين ، يستلهمهم الرأى ويستوحيهم الأسلوب . وقد ذكرنا مثلا أن « پوپ » مجدد فى الشعر الانجليزى ، له أسلوب خاص ومدرسة خاصة ، ولكنا اذا أمعنا فى البحث عرفنا أن هذا الأسلوب لم يكن من خلقه وإنشائه ، وإنما بلغ الذروة من الكمال على يديه بعد ما سار شوطاً بعيداً فى التقدم والترقى ، ووصل الى درجة تكاد تدانيه دقة وروعة فى كتابات الشاعر درپدن . وقد تعلم سكُتْ فى مدرسة رومانتيكية قبل أن يصبح زعيما لهذه الحركة ، وظهرت الفلسفة فى الشعر العربى قبل المتنبى والمعرى . وكثيراً ما ينعت شكسپير بأنه يتفرد فى عصره بالسمو والكمال الأدبى ، وأنه ابتكر الدرام لم يتبع فى ذلك أحداً ولم يتأثر أحداً ، ولكنه فى الواقع لم يكن إلا متمماً لمجهودات السابقين من الكتاب أمثال نكولاس يودال ، وتوماس فورتن ، وغيرهما ممن لا يرد ذكرهم فى تاريخ الأدب إلا لماما .

وتاريخ الأدب يوضح لنا هذه الصلات ويربط كاتباً بآخر ، وجماعة بجماعة ، ومدرسة بمدرسة ، كما يدرس أسباب التطورات المختلفة فى عصور الأدب ، وتأثير عقول الكتاب فى الجمود بالأدب والسير به فى مناهجه القديمة أو النهوض به وتوجيهه وجهات جديدة . وقد عرفنا أن روح الأدب تتغير من عصر الى عصر ، وكثيراً ما يتحكم الذوق العام عند جمهور الشعب فى هذا التغير ، فيخرج الأدب على غراره وينطبع بطابعه . وكما أن لكل جيل أسلوبه فى النثور ، فكذلك لكل جيل ذوقه الخاص . هذا الذوق سريع التقلب والتغير ، فان عصر فكتوريا فى الادب الانجليزى (١٨٣٢ — ١٨٨٧) على قرب عهده وشدة صلته بالعصر الحديث يختلف فى أدبه عن الادب الحديث ، كما يختلف فى زيه عن الازياء الحديثة . والفرق واضح بين لغة الادباء فى مصر الآن ، وبين لغتهم منذ عشرين عاما فقط ، ذلك لأن القراء قد تبدلت أذواقهم وتغيرت طرائق معيشتهم .

وتاريخ الادب يبحث قبل كل شىء عن أسباب هذا التطور فى الاساليب والاذواق ، وقد عرفنا أن شخصية الكاتب عامل عظيم الأثر فى هذه الانقلابات ، لان الكاتب الفذ يخلق ذوقاً جديداً وينشىء عصراً جديداً ومرحلة جديدة فى الادب ، ولكنا يجب ألا نغالى فى تقدير شخصية الكاتب حتى نجعلها تبتلع العوامل الأخرى وتستغرقها جميعا ، فقد ذكرنا أن النابغة يصاغ فى قالب من الثقافة والمثل العليا والاتجاهات العقلية والخلقية التى يولد فيها ، مما يكون له أكبر الأثر فيما يكتب ويخرج لهذا العالم . وكما يؤثر الأديب الفحل فى عصره فهو كذلك يتأثر به ، ويتوقف نجاحه الى حد كبير على خضوعه لأذواق الجماهير ومجاراته لأهوائهم ، وعلى ذلك فالكاتب ابن عصره ، ولا بد لنا عند دراسته من معرفة العوامل التى كيفت آراءه وحددت ذوقه الأدبى ، وجعلت له طابعاً خاصاً فى أدبه — وقد تكون هذه العوامل أدبية ترجع الى الكتب والمدارس كما يتميز عصر اليزابث — مثلا — فى الأدب الانجليزى باندفاعه وراء الآداب اللاتينية والاغريقية التى بعثها النهضة الأوربية ، فتأثر الكتاب فى ذلك العصر بسحر الأدب الايطالى ، وكما انبعثت آداب العصور الوسطى وفنونها منذ سنة ١٧٥٠ ، وتمثلت فى كولردج وسكت . فالواقع الذى لا مراء فيه أن المؤثرات الأدبية تأتى بأذواق جديدة تجرف أمامها أشد الكتاب استقلالاً فى الرأى .

ولكن الأدب يتأثر بعدة عوامل أخرى غير العامل الأدبى ، عوامل لا تمت الى الكتب والمدارس بصلة ، ولكنها تتصل

بالحياة العامة والسياسة والاجتماع بسبب ، فكل ما يبعث اتجاهاً جديداً في الرأى أو في منحى الحياة أو في مجرى السياسة والشعور العام يؤثر في تكوين الآداب الى حد كبير . ويجب علينا عند دراسة أى أثر من الآثار الأدبية ألا ننسى ظروف الزمان والمكان التي أحاطت بالكاتب عند تحرير كتابه .

٣ — صلة التاريخ بالأدب

لكل جنس من الأجناس البشرية ولكل عصر من عصور التاريخ مميزات خاصة ، ومهما تكن شخصية الأديب بالغة من القوة ، فان روح جنسه وعصره لا بد ظاهرة فيه ، وعلى ذلك فتاريخ الأدب يتأثر بمؤثرات وطنية كما يتأثر بمؤثرات شخصية . ويكفي أن نذكر الاصلاح الديني والثورة الفرنسية وظهور الاسلام وتقدم العلوم في القرن التاسع عشر ، وغير ذلك من الحوادث العظمى في التاريخ لنتبين العلاقة المتينة بين تاريخ الأدب والتاريخ العام .

ولا يقتصر تاريخ الأدب على دراسة المخلفات الأدبية لمختلف الكتاب ، كل كاتب على حدة ، وإنما هو يشمل كذلك دراسة أدب الأمة جملة واحدة ، وإظهار مميزاته العامة باعتباره انتاجاً لعقلية هذه الأمة ككتلة واحدة لها تفكير خاص وشعور خاص ، فللأدب العربي — مثلاً — مميزاته العامة ، وللأدب الانجليزي مميزاته العامة كذلك ، وتختلف هذه عن تلك بمقدار ما يختلف الشعبان في الجنس والسلالة .

كل ما له أثر في تكوين الأمة له أثر في نسج أدبها ، فان أدب الأمة هو تاريخها الذي دونته بقلمها يصور لنا أخبار رقيها العقلي والخلقي . واذا تتبعنا تاريخ الأدب في كل ما طرأ عليه من تقلبات ، فنحن على اتصال مباشر بالأسباب الحقيقية ، والحركات الدافعة لحياة الأمة في العصور المختلفة ، ونحن مستطيعون أن نفهم نظر أهل تلك العصور الى الحياة وألوان مسراتها وأنواع ملاهيها وفلسفتهم في الوجود ومختلف العواطف والأحاسيس التي كانت تجول بنفوسهم ، ومثلهم العليا في الأخلاق والذوق ، وأى صفات البطولة كان لها سلطان قوى على النفوس ، وكان لها نصيب كبير من الاعجاب ، فالأدب كما يقولون مرآة تنعكس عليها روح الشعب وحياته .

٤ — عصور الأدب

وقد اعتاد مؤرخو الآداب أن يقسموا الأدب الى عصور مختلفة ، ولم يلجأوا الى ذلك لسهولة الدرس فحسب ، ومن قبيل تقسيم الموضوع المتشعب الى أبواب وفصول ، ولكن هناك ما يبرر هذا التقسيم ، فالعصر التاريخي عبارة عن فترة زمنية يسود فيها نوع من الذوق العام ، وعلى ذلك فان أدب ذلك العصر يتسم بصفات خاصة من حيث المادة والفكرة والأسلوب . وقد تختلف آثار الكتاب البارزين بقدر ما تختلف شخصياتهم ، ولكن تلك الصفات العامة تظهر فيهم أجمعين ، ولا ينتهي عصر ويخلفه آخر ، إلا بعد تغيير حاسم في الذوق العام .

ولكننا يجب أن لا نضع الحواجز المتينة بين عصر وعصر ، فليس تاريخ الانسان أبواباً وفصولاً ، ولكنه تيار واحد متدفق يتعرج حيناً ذات اليمين وحيناً ذات اليسار ، ليس له بداية معينة ولا نهاية محدودة ، والعصور التاريخية في الواقع آخذ بعضها بتلابيب بعض ، وقد يبدأ الرجل عمله في عصر من العصور ولا ينتهي منه الا في عصر آخر ، كالمخضرمين بين الجاهلية والاسلام ، وكبشار وابن المقفع بين العصر الاموى والعصر العباسي . وقد عاش دريدن وملتون في زمن واحد ، ولم يعمر أولهما بعد الآخر الا سنوات قلائل ، ومع ذلك فقد اعتاد مؤرخو الأدب الانجليزي أن يضعوهما على رأس عصرين متتابعين يعرفان بعصر « دريدن » و عصر « ملتون » . ومع ذلك فان لتقسيم الأدب الى عصور أهميته الدراسية لأنه يوجه أنظارنا الى المراحل التي اجتازها الأدب وتميز في كل مرحلة منها بميزة خاصة ، وهو أهم ما يعني به مؤرخ الآداب .

وللمؤرخ أن يطلق على هذه العصور أسماء يشتقها من التاريخ ورجاله كعصر التراث ، وعصر فكتوريا ، وعصر المأمون . ولكن الأجدر بنا أن نسمى تلك العصور بأسماء مشتقة من الأدب نفسه ونطلق عليها أسماء مشاهير الكتاب الذين يمثلونها فنقول عصر شكسبير وعصر ملتون وعصر المتنبي . وعصر الجاحظ . . الخ ليسهل على الطالب أن يدرك بنظرة سريعة الصفات التي يتميز جيل عن جيل ؟

محمود محمود محمد